غريبة في مكان غريب

مروة المحتسب

عندما بدأت الكتابة، عدت عشرات السنين إلى الوراء، عدت لأرى نفسي طفلة ذات السنوات الأربع تركتها والدتها في مكان غريب مع أناس غرباء. بكيت كثيراً، ووجدت حضنا دافئاً غير حضن أمي يحضنني – إنها معلمتي في الروضة، التي ما زلت أشعر بحرارة حضنها وحنانها علينا. بعد مرور كل هذه السنوات، ما زلت أتواصل معها، فالطفل يحتاج إلى معاملة حسنة قبل احتياجه إلى تدريس جيد.

جانب من مشاركة مربيات الطفولة المبكرة في ورشة الطفولة والاستقصاء التي نظمها برنامج البحث والتطوير التربوي، 2016.

تذكرت بعدها عندما كبرنا وكنا نزعج، أنا وزميلاتي، المعلمات، ونثير الشغب في الحصص على الرغم من تفوقنا، لكن بعض المعلمات كن يجعلننا نمل أثناء الحصص، ما يجعلنا نثير الفوضى لتقليل الملل، فكنا نأكل العلكة، ونبعث برسائل سرية فيما بيننا للتحدث في أي شيء، فتصدر منا ضحكات مفاجأة، ما يجعل المعلمات يكشفن أمرنا، منهن من تخرج من الصف باكية بعد محاولتها تهدئتنا دون فائدة، وأخرى وكأنه لم يحصل شيء وتكمل الحصة. وأكثر ما كان يمكن أن يحصل، أن تطرد البنت الضاحكة خارج الصف، وتقضي باقي اليوم أمام الإدارة.

أما البعض الآخر، فكان يستولي على إصغائنا الكامل، فما زلت، بعد مرور العديد من السنين، أذكر طريقة شرح معلمة اللغة الإنجليزية، ما زلت أذكر الجمل التي وضعتها في كل درس قواعد، فأسلوبها البسيط الهادئ يجعلك تشعرين أنها لغتك، وليست لغة غريبة عنك.

في الرابعة عشرة من عمري، قررت أن أصبح معلمة علوم، وأن أدرس العلوم الحياتية في الجامعة، وبالفعل حدث ذلك ... ويعود هذا القرار إلى معلمة العلوم في الإعدادية، فقد كانت كنز معلومات، على الرغم من كل سلبياتها، وقسوتها، وعصبية مزاجها، وكانت عندما تيأس من تحصيل الطالبات تقول جملتها الشهيرة «عندي في الصف كراسي فوق كراسي». لكنها كانت موسوعة معلومات، ففي أي موضوع نحاورها فيه كانت على الدوام تملك الإجابة الشافية، وإنها على قدر عال من الثقافة، فمادة العلوم، بالإجمال، تحمل العديد من المواضيع المهمة في حياتنا اليومية، والكثير عن أجسامنا وصحته، فكنا نسأل باهتمام عما يحصل بداخل أجسامنا، وكيف تتسبب الكائنات الأخرى بالمرض؟ كيف تم اكتشاف الجاذبية؟ ما هي الحاسة السادسة؟ كيف تطفو السفن؟ والعديد من الأمور التي

تحير عقول الطلبة في تلك المرحلة العمرية. وعند سؤالها، لا تكتفي بالإجابة، بل تتطرق إلى أمور أوسع في مجال السؤال نفسه. لم يخطر لنا أن نسال عنها، لأننا، بالأساس، لا نعلم شيئاً عنها، وكأنها تقول لنا ازدادوا معرفة في ما يدور حولكن، وترسخت لدي قناعة في ذاك العمر أن السبب وراء ذلك شهادتها في العلوم الحياتية.

مرت السنين وآن الأوان الذي يجب فيه اختيار الفرع الذي سأنتسب إليه، فاخترت الفرع العلمي حتى أتمكن من دراسة الأحياء فيما بعد، ومعدلي كان ممتازاً ... وإذ بمعلمة الرياضيات تخبرني أن اختياري خاطئ، وأني يجب التراجع عنه، لأني ضعيفة في مادتها، ولن أتمكن من النجاح في الثانوية العامة. أُحبطت لفترة، وكرهت المادة أكثر فأكثر، لكنني لم أتراجع.

عزمت الدخول إلى هذا الفرع بغض النظر عن النتائج ... وصدى كلماتها بقي عالقاً في ذاكرتي، وكنت في جميع امتحانات الرياضيات أسلم ورقة فارغة لا تحمل سوى اسمي. ولكني بعد ذلك اجتهدت كثيراً في دراسة الرياضيات حتى أتت نتائج الامتحانات ونجحت في اختياري، وحصلت على معدل جيد في الرياضيات. لقد كان هذا الأمر تحدياً لمعلمة لم تختر كلماتها في توصيل فكرتها، فأثرت على نفسية طالبة طوال أكثر من عام، ولهذا ذكرت هذا الموقف، لأن طلبتنا يتأثرون بكلماتنا، فلننتقيها جيداً قبل قولها، حتى ولو كانت سلبية.

سجلت في الجامعة، والتحقت بتخصص العلوم الحياتية، لم أضع أي خيار آخر عند تسجيلي، وقُبلت، وتخرجت من الجامعة، وقد كانت مرحلة إبداع وراحة وتفوق، حتى أنني حصلت على معدل جامعي في السنة الأولى يسمح لي أن التحق بكلية المهن الصحية، وقد كانت رغبة أبي، فقمت لأجله بالتفريع للطب المخبري، مع الاستمرار أيضاً في العلوم الحياتية، والحمد لله تفوقت في التخصصين، وهذا كان يعتبر إنجازاً حُق لي أن أفرح به.

بعد التخرج تدربت قليلاً في مدرسة بالقرب من بيتنا، وكنت أشعر بالسعادة لاقترابي من تحقيق الهدف. وفي الفصل الدراسي التالي، دعتني مديرة المدرسة للتوظيف فيها. في أول يوم لي ذهبت وأنا أرتدي الجينز وحذاء رياضياً، ما لفت نظر الطلبة، وبدأوا بالتغامز فيما بينهم، وسمعت بعض التعليقات منهم. ظننت في البداية أنني سأفشل، وأنه ما زال الوقت باكراً لبدء هذه المهنة.

ولكن بعد الشهر الثاني، استدعتني مديرة المدرسة لتشكرني على إبداعي -كما وصفته- على تجربة في درس العلوم، وأخبرتني إنها تعمل مديرة منذ 15 عاماً، ولم ترَ مثل هذه التجربة. فحينها، قمت بمشاركة الطلبة في صنع تصميم للجهاز التنفسي من أدوات بسيطة، يبين أجزاء هذا الجهاز، ويبين كيف تحدث عملية الشهيق والزفير، وما يحدث للرئتين وللحجاب الحاجز، وفي الوقت نفسه، أحضرت معي رئتين وقصبات هوائية لخروف، لمقارنتها بما صنعناه أنا والطلبة. وقد فرح الطلبة بما أنجزوا، وأصبحت لديهم لعبة يجربون فيها شهيقهم وزفيرهم، وليس درساً في العلوم، وبخاصة أن ذلك تم في غرفة خاصة للفنون، وليس في غرفة الصف، ولا حتى داخل المختبر التابع للمدرسة.

كانت مديرتي تهتم دائماً بما أفعل، وحتى عند تقصيري كانت تستدعيني وتدلني على الوجهة الصحيحة بطرق رائعة، فما زالت كلماتها ونصائحها ترن في مسمعي، وأعطتني الدافع لأجتهد باستمرار وأكون عند حسن ظنها، فأكثرت من حصص المختبر والتجارب، وابتعدت عن التلقين في التدريس، إلا أن مناهجنا مكتظة في موادها، ومن الصعب الإطالة في الشرح والتجارب كما ينبغي.

استمريت في التدريس مدة عام ونصف، وخلال هذه الفترة تزوجت وأنجبت طفلة، ولأسباب صحية منعتني من إكمال طريقي في التدريس، كانت فتره جلوسي في البيت أشبه بالسجن، لم أستطع التعود أبداً على ذلك، مع أن جميع من حولي لم ينصحوني بتكرار التجربة، لأنها -كما يرونها- لم تعد لها وزنها هذه الأيام، ولم يعد للمعلم احترامه لدى الطلبة. ولكني على العكس من ذلك، وعلى الرغم من كبر المسؤولية

جانب من مشاركة مربيات الطفولة المبكرة في ورشة الطفولة والاستقصاء.

أطفال روضة سنابل الإيمان في لقاء ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة- برنامج القطان للبحث والتطوير التربوي، 2016.

التي توكل إليك، وصعوبتها، فإن كل ذلك يزول مع مشاهدة طالب تطور في تحصيله العلمي بسببك. عدت، مجدداً، إلى هذه المهنة التي أمارسها بحب وشغف، فقد كنت أدرّس جميع أبناء العائلة، ولا أذكر أحداً منهم نفذ مني ولم أعطه درساً.

اعتمدت هذا الأسلوب مع طلبتي، وهو التقرب إليهم، ومحاولة إشعارهم أنني واحدة منهم، فأكسر الحاجز بين المعلم والطالب، وكان بعض الطلبة ينادونني بأمي، وهذا يجعل قلبي يطير من الفرحة. ومن تجربتي، أعتقد أن الطالب يبدع ويتفوق أكثر في المادة التي يحب معلمتها، ولهذا أحاول أن أقرب المسافات بيني وبين أولادي، مع أن هذا يسبب لي الكثير من المتاعب في ضبط الصف، ولكني مع الوقت أسيطر أكثر على هذا الموضوع، مع بقاء حب الطلبة، فأنا لا أعتبر نفسي في الصف مُدرسة علوم فحسب، بل أتطرق من خلال درس العلوم إلى الدين، وقضايا الحياة اليومية، وشخصيتنا، وتعاملنا مع الآخرين.

أحياناً، أطلب من الطلبة تحضير الدرس وشرحه في اليوم التالي، ولاقت هذه الفكرة استحساناً لدى الطلبة، فحتى الطلبة ذوو المستوى المنخفض، خصصت لهم جزءاً بسيطاً من الدرس، وأساعدهم في تحضيره مسبقاً، ووضع الأسئلة التي يجب على كل منهم طرحها على الطلبة، وأنا بدوري أجلس في مقعد الطالب الذي أصبح معلماً لهذه الحصة، وأشارك في رفع يدي وكأنني عدت مجدداً إلى مقاعد الدراسة. كان معظم الطلبة، خارج نطاق الصف، يتحدثون لي بمشاكلهم الخاصة في البيت والمدرسة والتعليم، وكنت دائماً أحاول تعزيز ثقتهم بأنفسهم، وبأنهم حتى ولو كان تحصيلهم العلمي ليس بجيد في هذه المرحلة، فيمكن أن يكونوا عند الكبر من المتفوقين، شرط أن لا تثبط عزيمتهم وحبهم للتعلم والتطور.

في إحدى السنوات، كان في الصف طالب كثير الفوضى، معتد بنفسه، وتحصيله في المادة التي أعلمها متدنٍ بالنسبة للمواد الأخرى. في البداية، حاولت معه كثيراً لتحسين سلوكه، وكنت أعيد له شرح الدرس خصيصاً، ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً، فأحلت أمره للإدارة، فاستدعينا أهله للتحاور معهم، ولكن بالطبع لم يأتِ بنتيجة، وبخاصة في المواد التي أعطيها. انتهى الفصل الدراسي، وبدأ فصل جديد، وعاد الطالب كما كان. في إحدى المرات توعدت له بنقل ما بدر منه داخل الصف للإدارة، ولن أهدأ حتى يتم فصله من المدرسة، وخرجت لأعود في اليوم التالي وأخبره أني سامحته كما تسامح الأم أبناءها، وأن مصلحته تهمني جداً، وبدأت بالتدريج أمتدحه، ومن ثم أشكره على الالتزام بالأدب واحترامه لي، وبالتالي ارتفع تحصيله العلمي تدريجياً، وفوجئت في امتحان نهاية الفصل أنه حصل على علامة 39 من 40. لم أصدق عينيّ، واعتقدت جازماً أنه أخذ درساً خصوصياً. سألته عن ذلك، لكنه نفى وقال لي: لم آخذ أي دروس، كل ما حصل أنني أصبحت أحب موادك!

لا أقول إن حب المعلمة يكفي، ولا إن هذا ينفع مع جميع الطلبة، ولكن إذا توافر حب المعلمة مع مهارات المعلمة وشرحها الجيد، وتمكنها من المادة التي تعطيها، فمن المؤكد أن التحصيل العلمي للطلبة سيرتفع.

إضافة إلى العلوم، أدرّس حالياً الرياضيات للصفوف المبتدئة ... وأعاني من تدهور مستوى الطلبة في هذه المادة، واعتبارها متاهات يصعب حلها ... أحاول جاهدةً تلخيص خطوات الحل وتبسيط المسائل وإعطاء كل مسألة حقها ... إلا أنني حتى اللحظة لم أتقدم كما أتمنى مع الطلبة كما هو الحال في مادة العلوم. أعتقد أن صعوبة مادة الرياضيات نابعة من الأهل الذين يصورونها لأبنائهم بأنها من المستحيلات لضعفهم الذاتي بها، هذا الضعف الذي يورثونه لأبنائهم.

إنني أسخر ما أملك من مهارات لإتمام عملية الشرح وتوصيل المعلومة بالطريقة الأفضل للطالب، وأسعى دائماً إلى تطوير نفسي، فالخبرات التي نكتسبها من التدريس، تفيدنا لنبني جيلاً أفضل، وهذا أصبح هدفي في الحياة.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة/ العيزرية